



## ابراهيم عبد القيوم

### حدث ذات ليلة

تم تخيلها ، وهي نهب واحدة تلو الاخرى لتنتهها الكلاب والذئاب ، بعد ان قضى الجراد على المشب الذي تنفذى منه ، وتهد ، وزفر زفرة طويلة ، والتفت كفاه ، وشابكت اصابعه ، في عنف ، وانتهيا على صدره في ضربة عنيفة . .

ومضى يتذكر ما حدث ، ويتخيل سكان القرية الامنين ، وقد انطلقوا يشعلون النيران عندما يجيء الليل ليتساقط الجراد فيها ، ويمكن القضاء عليه ، ولكن الجراد كان اكثر من ان تقضي عليه نيران القرية كلها ، بدليل انه في ايام قليلة قد قضى على كل شيء ، وام يبق على اي شيء ، الا بقاياها المتساقطة في اعياء لانها لم تجد مساكلكه .

ومن جديد ضرب بكفه الارض عندما تذكر ان ثوره الذي يستخدمه في الساقية قد أخذ الاعياء يبدو عليه ، وانه سيموت حتما لانه لا يمكن ان يعيش بلا اكل ، والجراد لم يترك شيئا تاكله الحيوانات ، وغدا سيجد الانسان نفسه خائرا متهارا ، لان ما جرى للحيوان سوف يجري عليه . ولم يجد حاج محمد كبير غناء ليصل الى هذه النتيجة ، فقط نظر الى اعواد الزرع الخالية من الاوراق ، وتيقن من صدق رايه . ونهض واقفا على غير شعور منه ، ونظر امامه الى الجزيرة التي تنوسط النيل فوجدتها هي الاخرى يابسة تبعث على الوحشة والكتابة . ولوح بيده وكأنه يشير الى مجهول ، ليبصره بحقيقة ما جرى للقرية ، وما ينتظرها في ضمير القيب .

ويهرش شعر رأسه وتضيق نفسه اكثر عندما يتذكر انه لا يملك من الذرة ما يكفي لكل اسرته لمدة طويلة . . وتلفت حوله ثم يجلس ويبدو ان تفكيره قد شل تماما ، ولكنه ما يلبث ان يستغفر الله ، اذ تخطر بباله حوادث كثيرة مرت عليه في حياته ، ثم مضت حياته بعدها في سلام ، ويشعر بشيء من الهدوء ، ولكن هدوءه ايضا ما يلبث ان يتلاشى اذ يتذكر انه سيقف غدا امام المحكمة عندما يعجز عن تسديد ديونه ل محمد صالح التاجر . محمد صالح لن يتردد في ان يشكوه كما فعل مع كثيرين غيره . . واذا ما حدث ذلك فماذا يفعل؟ ان الطرق كلها مسدودة امامه . البلح اتلفه المطر ، والسرزوع التهمه الجراد ، ومواشيه ستموت حتما ، من عدم العلف ، فماذا يفعل عندما ترفع عليه القضية ، وحتى لو تدخل الوسطاء لحل مشكلته حلا اخويا ، فمن اين له ان يسدد ديونه ؟. ويحس ان المستقبل امامه مظلم ، وان القضية ستواجهه ، وسيحكم عليه العمدة . . برهن ارضه حتى يسدد ديونه ، وهذا هو الامر الذي ظل طيلة حياته يعمل

على غير عادته كان يمشي وهو مطرق وفي خاطره الا يرى شيئا من الاشياء التي حوله . .

ورفعا عما يحس به ، من ظروف القاهرة ، وازمات نفسية عنيفة الا انه يصر على ان يتمسك بعادته التي افها طويلا ، حتى كادت ان تصبح جزءا من حياته اليومية ، وهي ان يذهب كل يوم الى شاطيء النيل ، ويتوضأ ، ويؤدي صلاة العصر ، ثم يبقى على الشاطيء يؤدي ما عليه من عمل ، حتى يأتي وقت المغرب ، فيؤدي صلاة المغرب ، ثم يعود بعد ذلك الى داره ، ولولا هذه العادة التي تاصلت في نفسه لآثر ان يبقى في داره ، والا يبرحها ابدا .

وجلس حاج محمد ، ابن الستين عاما ، الذي عرف صنوفا من الآلام ، والمتاعب ، وعرف بين الناس بالعناد والصراحة والتدين ، جلس في نفس المكان الذي اعتاد ان يجلس فيه ، ثم بدأ يتوضأ ، واستغرق وضوءه فترة طويلة اكثر مما تتطلبه فترة الوضوء ، وكان حوله في تلك اللحظات بعض الصبية يضجون مثلما كان يفعل في الماضي ، فقط جلس في مكانه ، كانت عضلات وجهه تنكمش ، حتى يضيق وجهه ، وكانت تجاعيد جبهته تتحرك حتى تتلاصق في بعض الاحيان ، وتكاد تختلط تماما .

ونار في نفسه شريط طويل من الاحداث الخائفة ، وتمنى لو بكى في تلك اللحظة ، حتى يزول ما يحس به في نفسه . وعلى غير شعور منه قبض كفة يده اليمنى ، وضرب بها الارض حتى غاصت في رمل الشاطيء .

لم يكن في مقوره ان يتصور ما حدث . بالامس كانت آماله معلقة بمحصول النخيل ، فيسر ان الخريف اتى بامطاره الفزيرة ، واطف الثمر ، وما بقي منه ، جاء محمد صالح التاجر واستولى عليه كله ، ومع ذلك فانه لم يفظ كل ديونه ، ومن يومها اصبح يلح عليه ويطلبه باقي الدين . ثم . . تلتفت اماله بمحصول الزرع ، ولكن ها هو يرى اماله تتبدد ، بفعل قوة لا يستطيع دفعها ، او التقلب عليها .

ويزداد انفعاله عندما يتذكر اشجار النخيل والزرع الذي اصبح عيدانا بلا اوراق . وتتضاعف قسوة الالم والاتفعال ، عندما يتذكر انه اصبح ذات يوم ليجد سحبا من جحافل الجراد ( ساري الليل ) تغطي سماء القرية ، ثم تهبط على كل عود اخضر ولا تتركه حتى تأتي على خضرته تماما حتى اصبحت القرية اليوم ، وقد تحول كل شيء فيها الى اعواد يابسة كالحة كئيبة .

وتخيل ما سينترب على هذا . . تخيل بهائمهم وقد جف ضرعها ،

على تفاديه .. ولولا ان قتل الروح حرام لذهب وقتل محمد صالح  
التاجر ، وقتل نفسه ايضا ، حتى لا يتم رهن ارضه ..!

خطر له هذا الخاطر ، وتذكر ان له ابنا ، ترك القرية منذ فترة  
طويلة . وانه لا يعرف عنه شيئا سوى ما سمعه من احد جيرانه، كان  
قد عاد من السفر منذ شهر ، من انه رآه في بلد من بلاد الصعيد .  
ووجد نفسه يسب ابنه ويقرر ان ابنه لا فائدة منه ، ولو كانت فيه  
فائدة لما حصل لهم ما حصل . ولما كانت امه واخته تتبادلان لسوب  
( الزراق ) الوحيد الذي تملكانه عندما تريد واحدة منهما ان تخرج  
من البيت .. ولما وجد محمد صالح التاجر الفرصة ، ليهينه عندما  
كان محموما واعطى زوجته مسبحته وارسلها اليه ليسلفهم شيئا  
من السكر والشاي ، فقال لها بدلا من ان يفضي حاجتها : قولني  
لحاج محمد : سدد باقي ديونك اولا ، وبعدها نرى . وقولي له :  
الدكاكين مفتوحة لا للطاء مجانا ولكن لمن يدفع يأخذ .  
اذن ابنه هو سبب كل ما جرى له ، ولكنه يعود ويسأل نفسه :  
لماذا يتذكر ابنا نسي وائديه ؟ ونسي اهله وعفايه ! ان مثل هذا الابن  
يجب الا يذكره . ويتساءل مرة اخرى ، كيف وصل ابنه الى هذه  
الحالة ، وقد رباه تربية حسنة ، ولم يخل عليه بشيء يملكه حتى  
اصبح رجلا ، وسافر ليساعد اهله ، فاذا به يساهم تماما . ويتهم  
ولكن يا خسارة ( التمساح يلد الولد ) .

وتعصر الهموم قلبه ، فتحاصره فيلوح بيده ، ويلعن المطر ،  
ويلعن الجراد ، ويلعن التاجر ، ويلعن ابنه . ولكنه يذكر نجاة ،  
انه نسي نفسه الى حد بعيد ، ونسي صبره ووفاره ، فيتهدد ويستغفر  
الله ، ويتردد في نفسه ان الجراد قدر من انله لا يمكن رده ، والتاجر  
حر في تجارته ، وحر في ان يعطيه او يمنعه ولكن علي .. علي ابنه ..  
هذا هو الذي لا يجسد لوثقه مبررا .

علي وحده هو سبب متسلكنه ومصيبتة .. علي .. مونا خير من  
حياته لانه في حالة الموت يدفع عنهم همسات الجيران وآقويلهم حوله ،  
بانه اصبح سفيها ، وانه يعيش مع ( الصياع ) في الصعيد ..  
ويتعجب ، ويتردد في نفسه هذا الخاطر : علي ودجاج محمد يعيش مع  
( الصياع ) .. ويضرب كفا بكف ، وتفجر طاقات الغضب في نفسه  
ثم ما يلبث ان يهدأ قليلا ، عندما يشع في نفسه خاطر ، بأن سلوك  
علي شيء مقدر هو الاخر ، ويتمتم : رضينا بالقضاء والقدر !

ويبقى قليلا من امواج الازمات التي تتصارع في نفسه ، فيرى  
قرص الشمس الحمراء ، وقد اختفى جزء منه وراء قبة الفضاء ، ويتأمل  
فيها ويدفعه هذا التأمل في ودرة الله التي جعلها . شرق وغرب  
بنظام دقيق .. ويعطمئن اكثر ، ثم ينهض بعد ذلك ، وبعد تأملات روحية  
جعلت اسارير جبهته تنطلق بعض الشيء ، ثم يؤدي الصلاة ، ويتجه  
قاصدا منزله .

يمضي في الطريق ورأسه مطرق ، وذلك حتى لا يرى ما حوله  
من الاشجار والزرع الذي اصبح عاريا من غير ورق ويدخل البيت فيلجم  
لسانا من الضوء في احدى الغرف ، يتراقص على هبات النسيم . وتحس  
زوجته بمقدمه فتخرج اليه من الغرفة ، وتساله ان كان قد اقتنع  
التاجر بأن يعطيه ملابس لها ولائبتها ..

ولكن حاج محمد يتشغل عن سؤالها ويأخذ في مداعبة حبات  
مسبحته . وتحس زوجته بأنه لا يريد ان يجيب ، على سؤالها ، فتقترب  
منه وتشعره في كلمات قاطعة ، بانها وابنتها لا تستطيعان ان  
تصبرا اكثر مما صبرنا ، وانها هي ان صبرت فان ابنتها لا يمكن ان  
تستمر على هذه الحالة ، تتفاسم مع امها ثوبها الوحيد من الزراق ،  
عندما تريد الخروج الى زيارة الجيران .. ماذا يقول عنها الناس؟  
وهل بنات الجيران خير منها ؟ وماذا يفعلان لو تقدم اليها ابن حلال؟  
ويتعجب حاج محمد من تفكير زوجته النسي لا تحس بالكارثة  
التي تحيط بحياتهم وحياة القرية ، ولا يهمها شيء سوى زواج  
ابنتها !

وتلاحظ الزوجة ان زوجها لا يعطي كلامها اهتماما ، فصرخ  
في وجهه مؤكدة ما سبق ان قالت ، وتنصيف عليه .. ان نلست هي  
فسمعتها التي ربطتها برجل يعجز عن ( كسوة ) ابنته !  
ويزفر حاج محمد ، وقد اثر فيه كلام زوجته ، ويقول لها : خافي  
الله . حاج محمد لا يقصر في بيته ، وبنته اغلى من روحه .  
ونقاطعه زوجته ، بأن حالة ابنته وحالتها ، هي عين التقصير ،  
والذي لا يكسو ابنته وزوجته مقصر ، سواء كان حاج محمد او حاج  
احمد ..

ويحس حاج محمد بالغضب ، ولكنه يكبت غيظه ويصمت . ويزداد  
صوت زوجته ارتفاعا ، فتأتي ابنتها طالبة منها ان تدع والدها يرتاح ،  
ومؤيدة لقول ابائها بأنه لا يتصر عندما يكون لديه شيء ، وتصرخ الام  
في ابنتها ، وتأخذ في سبها وسب ابائها ، فتصمت البنت ونزوي  
بعيدا ، ويخرج حاج محمد من المنزل ، وتشتد زوجته غضبا ، وتامر  
احد اطفالها ان يلحق بابيه ويطلب منه ان يعود الى البيت ، متوعدة  
انها لن تتركه حتى يعطيها كلمة قاطعة في هذه الليلة .

انصاع الطفل اكلام أمه ، ونهض من عنقريه ، وخطا خطوات  
ليلحق بابيه ، ولكنه صرخ فجأة ، وأخذ يقفز ، وتجاوبت معه امه في  
الصراخ ، وصرخت اخته .. وجد الحاج نفسه يجري عائدا الى البيت ،  
ويتنصم الى أسراده اسرته ويحمل الطفل الى احدى الغرف ، ويرقده  
على عنقريب بدون فراش . وأخذ قطعة من القماش ، وربط بها ساق  
الطفل ، حتى لا يتسرب سم العقرب التي لسفته الى باقي جسمه .  
ولم تكد تمضي دقائق ، حتى امتلا المنزل بالتجيران وانطلقت  
الاصوات تطلب احضار فكي ايوب ، وحاج الخضر ، وحاجة الروضة ..  
وذهب اكثر من شاب للقيام بهذه المهمة .

وكان اول الحاضرين من المطلوبين هو حاج الخضر الذي جلس  
بجانب الطفل ، وأخذ بتحسس قدمه وينظر اليها بامعان على ضوء السراج  
الخافت ، ويهتسز حاجباه ، وهو ينظر الى مكان في حافة القدم ،  
تكونت حوله نقط من العرق ، ثم يفتح (جرايه) ويخرج منه آلة حادة ،  
يحدث بها فصدات صغيرة في قدم الطفل ، ويبدأ في امتصاص المكان  
الذي به الفصدات ويصق دما من وقت لآخر ، وبينما هو يوالي  
عمليته يدخل فكي ايوب ، ويجلس بالقرب من رأس الطفل ، ويضغط على  
جبهته بكفه ويتمتم ببعض الادوية ، وينثف من وقت لآخر على رأس  
الطفل . كل هذا والطفل يتلوى في ألم ، وتنقبض عضلات وجهه في  
بعض الاحيان بطريقة مخيفة ، ويحاول في احيان اخرى ان ينهض  
ولكن الجالسين حوله بضفطون عليه ويجبرونه على البقاء حيث هو ..  
وعقب كل محاولة منه للتهوض ، كان يتقيئا شيئا اشبه بزبد البحر  
ويتردد همس من هنا وهناك : الولد ملاء السم . وتعالى الاصوات  
طالبة له الشفاء ، ويتردد اسم اكثر من ولي من اولياء الله ..  
الهالحين ..

كانت امه تجلس على الارض بجانب عنقريه صامتة لا تقول شيئا ،  
فقط تتدافع الدموع على خديها .. لقد نسيت كل شيء ، نسيت  
شجارها مع زوجها ، ونسيت ابنتها التي تقاسمها ليس ثوب الزراق ،  
الواحد واصبح تفكيرها منحصر في شيء واحد هو ان يشفى ابنها ..  
شفاء ابنتها هو قضيتها الان .. قضيتها الوحيدة ، اما ابوه ، فلقد  
كان يفكر في شيء اخر .. ماذا لو حدث امر الله ، وهو متوقع في  
كل لحظة ؟ هل سيعامله التاجر محمد صالح مثل معاملته السابقة له ،  
ويرفض ان سلفه ما يستر به جنازة ولده ؟

ويتجسد هذا الشعور في نفسه عندما يتأكد من ان التاجر محمد  
صالح هو الوحيد من اهل القرية الذي لسم يحضر لعيادة ابنه . ويجد  
نفسه يتساءل : ان كان المال يجعل اصحابه لا يحسون بالمشاركة  
الانسانية ؟ ويبدو له هذا شيئا غريبا ، ولكنه يطرد هذه الخواطر من  
نفسه ، وتنبثق جنوة من الامل في اعماقه ، بان الله سيشفى ابنه  
فيحس بشيء من الارتياح .

ويقطع عليه خواطره صوت اخذ يتردد من خارج الغرفة . كان صوتا نساءيا مبوحا ، وكان يردد : باسم الله .. مدد يا اسيادي ، مدد يا اهل الله . مدد يا اهل الحظوة .. نادهاكم تكشفوا الغمة ، وتزبلوا المحنة من ود اسياسا .

وتدخل الحاجة الروضة ، وهي تردد دعواتها ، وتطلق بها الامين . ولكنها لا تهتم بشيء ، فقط تطلب مبخرا ونارا ، وتفك صرة في طرف ثوبها وتخرج منها شيئا من البخور ، وتضع البخور على النار ، وينطلق الدخان ، ويملا اجواء الغرفة ويكثر السعال حتى الطفل المصاب اخذ يسعل هو الآخر ، ثم تفك صرة اخرى وتخرج منها شيئا من الرمل ، وتلده على جسم الصبي .. وتردد دعواتها السابقة .

ويتردد الهمس في الغرفة خلال ذلك تقول امرأة : لو اعطي الولد عصير الليمون لكان السم قد فسد في جسمه ، ويقول رجل ، لو كنا احضرنا فكي عبدالدائم بدلا من الفكي ايوب لكان الطفل قد شفي بعد لحظات .. فكي عبدالدائم « ابده لاحقه » وتهمس امرأة : يعلم الله او كانوا لبخوا مكان اللسمة بالمطرون والملح كان الولد طابونام .

وينهمر سيل المقترحات ، ويكثر ذكر الوصفات ، وتمر ساعات ثقيلة كتيبة حزينة ، ما يلبث الطفل بعدما ان يهدأ قليلا ، ثم يروح في نوم متقطع .. تتعالي بعده النهائي الابوية ، ويبدأ الناس في الذهاب الى منازلهم ، ولكن فكي ايوب قبل ان يخرج يوصي بان يكتب للطفل حجاب يحفظه من العين ، التي جرت عليه لسمة المقرب ، ويعد بأنه سيكتب الحجاب ويحضره غدا معه .

وحاج الخضر يوصي بان يمسح جسم الطفل بالزيت المزوج بالملح وانه سيحضّر في الصباح لرؤيته ، اما حاجة الروضة ، فانها توصي بان يذهب الطفل الى صريح الشيخ « العزب » وان تقام له « كرامة » كبيرة وتنتظر الى زوجة حاج محمد نظرة ذات مغزى وتقول لها : ما تنسي اهل الله طيبوا ولدك ، وعليكم ان تقيموا لهم الكرامة ، وتطلب منها ان تحضر « البياض » لانها ستاتي غدا وتأخذ الطفل لزيارة الشيخ العزب .

وترحب زوجة حاج محمد بالفكرة ، وتمد بانها ستنتظرها مستعدة لكل شيء ، وتذهب هي نفسها معها الى الزيارة . وتمر لحظات ، ويجسد الزوج والزوجة وابناؤهما وحدهم ، ويقول حاج محمد ، الحمد لله ربنا قدر ولطف .

وياتي راي الزوجة مطابقا لراي زوجها ، ولكنها تضيف السي ذلك ما يؤكد بانها تصر على ان تقيم لابنها « كرامة » لم تشهد البلدة مثلها ، ثم تطلب من زوجها ان يحضر الفلوس التي ستذهب بها الى الزيارة مع حاجة الروضة ، والفلوس التي ستعطيتها فكي ايوب عندما يحضر الحجاب لابنها ، حتى يحرسه من العين ، ويحفظه من العقارب ! يبلع حاج محمد ريقه ويتذكر الازمات التي مرت به . يتذكر المطر الذي اتلف بلحه ، والجراد الذي قضى على زرعه ، ويتذكر التاجر محمد صالح الذي اهانه امام زوجته ، ثم يتذكر المحنة التي تعرض لها ابنه ، فيثور في نفسه ، شيء ، ولكنه يكبح جماح غضبه ، ويطلب من زوجته ان تنتظر حتى الصباح ، ثم يتشاوران في الامر .

ولكن الزوجة لا ترى مبررا للانتظار حتى يجيء الصباح وتطلب من زوجها ان يؤكد لها بانه سيحضّر الفلوس لفكي ايوب ولزيارة الشيخ العزب . وبعد هذا لا بد ان يؤكد لها بانه سيقيم كرامة كبيرة من اجل شفاء ابنهما .

ويرد حاج محمد : ان شاء الله كل شيء يتم باذن الله ، وتحس الزوجة ان زوجها لا يريد ان يعطيها كلمة قاطعة ، وتنهض واقفة وتتقدم نحوه ، وتقسم بانها لن تبقى في المنزل ما لم يلتزم زوجها بكل طلباتها .. و .. ولكن قبل ان تتم كلامها ، ينطلق صوت خارج الدار : يا حاج محمد .. يا حاج محمد .

وبرد الحاج على النداء ، ويسأل عن صاحب الصوت ، ويرد المنادي انا صالح يا عمي الحاج .. البشارة .. ولذلك عني جاء من السفر .

وينهض حاج محمد ويجري نحو الباب ، وهو لا يكاد يصدق اذنيه ، وتتبعه زوجته وابنته ، وهما تزغردان بصورة تلونها العبرات .. وحتى الطفل الملسوع يفتح عينيه المرهقتين ليعرف حقيقة ما جرى . ومن جديد يمتلئ البيت بالناس ، وتفسير الصورة ، ويوم حاج محمد بعد خروج المهنتين ان يشرح لابنه ما يصادفه من ازمات ، ولكن ابنه يطلب منه الا يقول شيئا ، ويعرفه انه علم بكل شيء ، ومن اجل هذا حضر .. ويقول لابي : الان اعتبر كل شيء قد انتهى ! وتصيح الام : انا عارفة .. ولد ارضعته لبني لا يمكن يطلع خايب .. اما حاج محمد فيتردد في نفسه هو : الحمد لله كل ليل لا بد ان يقبه فجر !!

الخرطوم - ابراهيم عبدالقيوم

## خليل مطران

### مختارات من شعره

قدم لها الشاعر

احمد عبدالمعطي حجازي

يصدر هذا الشهر